كتب بالعربية

أفضل الأعداء

بسام أبو شريف وعوزي محنايمي

بيروت: دار الساقي، ٢٠١٠. ٣٨٠ صفحة.

كانت تجربة مثيرة حقاً عندما كتب جبرا إبراهيم جبرا وعبد الرحمن منيف رواية مشتركة هي "عالم بلا خرائط" (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٢). غير أن كتاب "أفضل الأعداء" لم يكن مثيراً البتة كما توقعنا قبل الشروع في قراءته، مع أن مقارنة العملين ليست لمصلحة الكتاب الثاني بالتأكيد، وهي مجحفة في أي حال، لأن "عالم بلا خرائط" رواية مشغولة بأصابع اثنين من أبرز الروائيين المبدعين العرب، بينما كتاب "أفضل الأعداء" مجرد سرد تاريخي لتجربتين متقابلتين في الأمن والسياسة والصحافة، وعصارة السيرة الذاتية لاثنين، كلٌّ في جبهة: عوزي محنايمي رجل الاستخبارات والصحافي لاحقاً، وبسام أبو شريف المناضل والكاتب وداعية السلام فيما بعد. وفوق ذلك، جاء تقسيم الفصول على ذاك النحو من التعاقب المتنافر في كثير من الأحيان ليجعل الكتاب بارداً وهادئاً، ولا يخدم غاية الإثارة التي نجدها في مثل هذا الطراز من الكتب. ثم تكفلت الأغلاط الكثيرة بالقضاء على أي قيمة تاريخية لهذا الكتاب.

نقرأ في مدخل الكتاب الذي لا نعرف مَن كتبه ما يلي: "هذه قصة عدوّين طالما تقاتلا في ساحة المعارك من دون أن يعرف أحدهما الآخر، عدوين لدودين من دون أن يتعاديا كشخصين... بل كان يترصد أحدهما الآخر كرقم من الأرقام" (ص ٨). والواضح أن ثمة افتعالاً غير منطقي في اختيار الألفاظ في هذه الفقرة، وهو افتعال يريد أن يوحي بميدان استخباراتي خفي كانت تدور فيه معارك سرية طاحنة، وهو أمر غير صحيح إلى حد بعيد. فكيف كان يترصد أحدهما الآخر؟ ربما كان محنايمي يترصد، كرجل استخبارات، بسام أبو شريف، مع أن بقية فصول الكتاب لا تتضمن أي معلومات عن ذلك مطلقاً، لكن بسام أبو شريف الذي عمل في الإعلام والعلاقات السياسية بالدرجة الأولى لم يكن يترصد عوزي محنايمي بالذات، إلاّ إذا كان المعنى محمولاً على المجاز.

قصارى القول أنني لم أكتشف أي أمر مهم فيما كتبه عوزي محنايمي. فما كتبه هو عبارة عن سيرة شخصية لا تكشف أي شأن جديد على الإطلاق. وجل ما فعله هو اعترافه بأن موقفه من العرب تغير بعد أن ترك الخدمة في المخابرات. وهذه النتيجة هي قاعدة مألوفة، ومضحكة أيضاً، لمعظم رجال المخابرات، فهم يصبحون "ملائكة" وحكماء بعد خروجهم من "الجهاز"، بينما يكونون في أثناء الخدمة وحوشاً. لنقرأ، على سبيل المثال، "مذكرات صلاح نصر" (القاهرة: دار الخيّال، ١٩٩٩)، أو مذكرات سامي جمعة ("أوراق من دفتر الوطن"، دمشق: دار طلاس للدراسات، ٢٠٠٠)، أو مذكرات سامي الخطيب ("في عين الحدث"، بيروت: د.ن.، ٢٠٠٨)، أو ذكريات فوزي الشعيبي الموسومة بعنوان "شاهد من المخابرات السورية" (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٨)، وغيرهم ممن ذاق كثيرون جداً مرَّ العذاب على أيديهم، وسياط التنكيل على أيدي رجالهم وعسسهم وجلاوزتهم.

ماذا في الكتاب؟

ثمة جملة ترددتْ أكثر من مرة

في ثنايا الكتاب، ووردت أول مرة في المدخل المُغفل من أي توقيع هي: "بسام أبو شريف الواثق من نفسه والمتيقن من الانتصار" (ص ٧)، ثم تكررت بصورة أخرى في الصفحة (٨) على النحو التالي: "بسام أبو شريف القائد الواثق من نفسه والذي لا يشك لحظة في حتمية الانتصار." إن هذه العبارات التهليلية تعيد إلى الذاكرة ما نسيته مثل اللواحق التي كانت تلتصق باسم الزعيم الكوري كيم إيل سونغ أينما يرد ذكره مثل "الزعيم المحبوب" و"الشمس التي تشرق في كل يوم على أربعين مليون كوري" و"العبقري الذي جدّد الماركسية ـ اللينينية ودمج فيها تعاليم زوتشة". حتى إن بيتر ديفيد، الكاتب في مجلة "إيكونوميست"، والذي كتب مقدمة الكتاب، لا يتورع عن وصف بسام أبو شريف بأنه "أحد أكثر القادة الفلسطينيين، من أبناء جيله جاذبية" (ص ١٢). وفي هذا القول ما يتعدى الوصف إلى المجاملة والمدح والترويج على ما أحسبُ.

يروي عوزي محنايمي قصة جده شالوم بطريقة شاعرية وبارعة، فيجعله مثل أبطال الأساطير، وكيف سار هذا الجد إلى حلمه، وناضل في سبيله، وقاسى الأهوال لتحقيقه، الأمر الذي يستدرج مَن يقرأ هذا الكلام من الغربيين إلى التعاطف مع اليهود وصلابتهم وتشبثهم بالأهداف العسيرة التي وضعوها نصب أعينهم (ص ١٧). بينما يروي بسام أبو شريف سلسلة نَسَبه التي يعود بها إلى الفاطميين، وكيف هاجر أجداده من إفريقيا إلى اليمن ثم جاؤوا إلى فلسطين قبل ٥٠٠ سنة (ص ٢٤). وهذه الرواية، مثل غيرها من حكايات الأنساب، أتاحت للصهيونيين مراراً التصدي للفلسطينيين بالقول: إنكم، في معظمكم، لستم من سكان هذه البلاد منذ زمن بعيد. فأنتم يمنيون أو مصريون أو حجازيون أو شوام، أي عرب مهاجرون إلى فلسطين، لا من أبناء فلسطين القدامى كاليهود... وفي هذه الحال، ما الضير من عودتكم إلى الأماكن القديمة التي جئتم منها، فهي أوطانكم الأصلية، تماماً مثلما يعود اليهود إلى وطنهم القديم اليوم؟ وعلى الرغم من أن هذه المجادلة عقيمة، فإنها شائعة جداً في الكتابات السياسية الإسرائيلية.

يفخر عوزي محنايمي، مرة ثانية، بجده شالوم كراينر الذي غيّر اسمه إلى محنايمي بعد أن هاجر من ليتوانيا إلى فلسطين في سنة ١٩١٢، وصار مقاتلاً في سبيل أرض إسرائيل. ويفخر أيضاً بوالده جدعون، الضابط المقاتل في "الهاغاناه" منذ سنة ١٩٤٦، وبالتحديد في "البالماح" بقيادة يتسحاق رابين، والذي خاض معركة صفد التي انتهت إلى طرد سكانها منها، ويتألق فخراً وهو يتحدث عن والده الذي غَنِمَ مسدساً لفوزي القاوقجي في أثناء معركة صفد، الأمر الذي جعله أحد أبطال "حرب الاستقلال" في سنة ١٩٤٨ (ص ٧٧). أمّا بسام أبو شريف فيفخر بوالده الذي لم يكن محارباً، بل كان محباً للسلام (ص ٣٩)، ووقف ضده بشدة حين رغب في الانضمام إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وحاول ثنيه عن هذا الخيار السياسي بشتى الوسائل (ص ٧٧).

الحلم والاستخبارات وخيبة الأمل

يتحدث بسام أبو شريف عن حركة القوميين العرب التي انضم إليها، بطريقة تجعل مَن لا يعرف ثقافة تلك المرحلة، أي في أواخر خمسينيات القرن المنصرم ومطالع ستينياته، ينفر من هذه الحركة وقواعد سلوك أعضائها، فيقول إن العضو كان عليه ألاّ يدخن، وألاّ يشرب الكحول (ص ٥١)، وألاّ يشرب الكوكاكولا (ص ٥٢)... وألاّ يبتسم حتى تحرير فلسطين في روايات شفهية أخرى! وإذا كانت الطهرانية المسلكية والصرامة العقائدية والتقشف في الحياة اليومية قواعد معروفة ومفهومة اتسمت بها حركات سياسية كثيرة في العالم العربي، إلاّ إن ما لا يمكن فهمه، ولم أفهمه في الوقت نفسه، كيف أن جورج حبش حين كلّفه في سنة ١٩٦٣ نقل مبلغ من المال إلى القدس لنجدة رفاقهما المعتقلين، جاءه "رفيق مسؤول" معه رزمة من النقود، وقام بوضع عبوة ناسفة

صغيرة بين الأوراق المالية، ثم أدخل الرزمة والعبوة في مغلف وأحكم إغلاقه باللاصق (ص ٥٧).

لماذا؟ ما الحكمة في ذلك؟ وهل إن قواعد الأمان تتطلب مثل هذا التدبير الخطر الذي من شأنه أن يقتل حامله عند أقل غلط؟ ومهما يكن الأمر، فقد توقعنا العثور على روايات مثيرة وشائقة عن عالم الاستخبارات الإسرائيلية، غير أن توقعاتنا المنتظرة خابت تماماً، وجل ما أمكن التقاطه في هذا الحقل هو شذرات متناثرة من السعي الإسرائيلي الدائم لتجنيد عملاء فلسطينيين لاستخدامهم في الحصول على معلومات عن الدول العربية المعادية (ص ١٦٨). وفي شأن أمثال هؤلاء العملاء يفصح عوزي محنايمي عن نظرة أجهزة الاستخبارات إليهم بالقول إن القاعدة هي عدم اعتبار العميل "العربي" إنساناً ذا قيمة، وأنه ليس إنساناً آدمياً... العميل مجرد قطعة سلاح ووسيلة لتحقيق غاية ليس إلاّ. وإذا كان عليك تعليقه على حبل المشنقة فليس عليك حتى التفكير فيه (ص ١٦٥). على أن الكتاب لا يخلو تماماً من قصص العملاء والاستخبارات، فهو يحتوي روايتين عن الصراع الاستخباراتي بين وديع حداد والموساد، وبين الاستخبارات السورية والموساد أيضاً. ويسرد محنايمي قصة الجنديين السوريين الشجاعين، وهما من أهالي مجدل شمس، اللذين كلفهما العقيد السوري مفتخر الشرع اختطاف أحد ضباط الاستخبارات الإسرائيلية ونقله إلى سورية، وكيف كادت الخطة تنجح (ص ١٦٩ – ١٨٠)، بينما يروي بسام أبو شريف وعوزي محنايمي قصة العميل أبو حامد حسين من قلقيلية الذي جندته المخابرات الإسرائيلية للتجسس على الجبهة الشعبية، وكيف كشف وديع حداد أمره فسجنه في مخيم البداوي، وانتهى أمره مقتولاً في سجنه حين قصفت الطائرات الإسرائيلية ذلك المخيم، وتهدم السجن، ويا للمصادفة والعبرة، فوق رأس العميل (ص ١٨١ – ٢٠٤).

يعمل هذا الكتاب على موجتين من الرؤية، وهذا أمر بدهي، لأن الكتاب وضعه اثنان من موقعين مختلفين في الأساس، وإن التقيا لاحقاً في بعض المواقف السياسية العامة مثل "السلام" و"وقف الصراع بين الشعبين"... إلخ. ومع أن عوزي محنايمي يؤكد أنه راح يتفهم العرب على نحو أفضل في أثناء عمله في الاستخبارات العسكرية، إلاّ إن هذا الأمر لم يكن يعني أنه بات ودوداً لأي منهم (ص ١٧٩). وهذا الكتاب يبرهن أن محنايمي ما برح أسير الموقف التقليدي للصهيونيين من الفلسطينيين، وهو الموقف الخرافي لجده ووالده اللذين كان لهما الشأن المهم في قتل العرب وتهجيرهم من فلسطين. فصورة العربي لدى محنايمي هي أنه "لص" (ص ٣٢)؛ هذا ما يرويه عن أحد رجال قرية "سلمة" العربية كطراز يكتسب صيغة التعميم (ص ٣٥). وهو يتحدث عن العربي بطريقة مترددة فيقول إنه ما عاد متأكداً من "أن كل عربي شيطان. إنه نوع من أنترمينش" (ص ١٧٩). وفي هذا السياق توقفنا عند كلمة "أنترمينش" الغريبة، التي تركها المترجم كما هي لأنه، بالتأكيد، لم يتمكن من اكتشاف معناها أو العثور على تفسير لها، وهو أمر قبيح إلى أبعد الحدود، ولو سأل لوصل. المهم أن هذه الكلمة تُكتب هكذا: "أونترمينش"، وهي لفظة "يديشية" تعني الشخص الدون أو المنحط وتقابلها كلمة Subhuman في الإنجليزية.

إن إبرة الموجة التي كتب بها عوزي محنايمي جرى تثبيتها على خانة التزوير، وفيها القليل من الإفصاح. أمّا موجة بسام أبو شريف فكانت تردد معنى الخيبة. يقول محنايمي إن الرواد الصهيونيين آمنوا بـ "الحرية والحب" (ص ٢٨)، وهذا تزوير خالص. ويضيف: "جاء جدي شالوم إلى فلسطين يحمل حلماً، وقد تحقق ذلك الحلم إلى حد بعيد. قاتل الصهاينة من أجل دولتهم وظفروا بها. لكن شالوم لم يأتِ إلى فلسطين وفي باله شن حرب. كان يريد بناء بلد عادي يستطيع العيش فيه كإنسان عادي... لكننا بدلاً من ذلك شيدنا لأنفسنا غيتو جديداً... ليس في هذا شيء من الحلم الصهيوني. لقد اضطر شالوم [انتبه إلى كلمة "اضطر" التي لا تعني هنا إلاّ التضليل المحض] لأن يقاتل، وكذلك والدي، ثم أنا؛ هذا ما كان علينا معرفته، وهذا هو تقريباً

كل ما نعرفه، وهو كيفية كسب الحرب" (ص ٣٦٨). ويبوح بسام أبو شريف، بلغة حزينة، بأنه عمل للسلام كثيراً، وقامر بسمعته النضالية، وصاغ رسائل وبيانات كثيرة، وكتب خطباً لياسر عرفات، وقدم مبادرات سياسية، والتقى مسؤولين دبلوماسيين وسياسيين من أميركا وأوروبا لهذه الغاية. وعندما حانت الفرصة لم يجد له مكاناً في قطار السلام الذي تحطم لاحقاً في أي حال.

لماذا؟ يجيب بسام أبو شريف: "لسبب واحد هو أنني لستُ عضواً في قيادة منظمة التحرير الفلسطينية" (ص ٣٦٢). والحقيقة أن هذا السبب واه جداً، وغير منطقي. فهل كان أحمد قريع (أبو علاء) وحسن عصفور وماهر الكرد، وهم كانوا الواجهة العلنية والأداة التنفيذية لمفاوضات أوسلو السرية، أعضاء في قيادة المنظمة؟ بالتأكيد لا. ولعل بسام كان يقصد أنه ليس عضواً في قيادة حركة "فتح". ومع ذلك فإن ياسر عبد ربه، على سبيل المثال، وحتى حسن عصفور وماهر الكرد ليسوا من قادة "فتح". السبب، إذاً، يكمن في مكان آخر.

قصارى القول إن هذا الكتاب غير مثير في مضمونه، وهو لا يكشف أي أمور جديدة، بل يروي وقائع معروفاً معظمها إلى حد بعيد. وهو كتاب مجزوء، ولا سيما ما كتبه بسام أبو شريف، فهو لا يُكمل قصة كارلوس مثلاً، ولا يعير أي اهتمام لحرب الخليج الثانية في سنة ١٩٩٠، ومؤتمر مدريد للسلام في سنة ١٩٩١، وهما الحدثان اللذان غيّرا المنطقة العربية كلها، وخصوصاً أنهما تزامنا مع سقوط الاتحاد السوفياتي ونهاية الحرب الباردة. ثم إن الكتاب يمر مرور الكرام على المحادثات السرية في أوسلو، ولا يلتفت البتة إلى المشكلات الشائكة التي ظهرت، منذ البداية، في سياق عملية بناء السلطة الفلسطينية، ومنها مشكلات الأمن والفساد. وهو يترك لعوزي محنايمي الاستفراد بقصة اغتيال ناجي العلي ليقول إن ياسر عرفات هو الذي أمر باغتياله، وإن الموساد عرف تفصيلات خطة الاغتيال، لكنه سكت عن الأمر، ولم يبلغ الاستخبارات البريطانية هذه المعلومات، لأنه أراد تحطيم سمعة منظمة التحرير الفلسطينية، وياسر عرفات بالتحديد، وتخريب العلاقات الفلسطينية ـ البريطانية (ص ٣٤٨). وهي رواية الموساد نفسها التي روّجها في سنة ١٩٨٧.

مصائب الترجمة واعتلال النص

صدر الكتاب بالإنجليزية، أول مرة، في سنة ١٩٩٥، ثم بالعربية في سنة ٢٠١٠، أي بعد خمسة عشر عاماً. وكان في الإمكان التدقيق المتمهل في هذه الترجمة السقيمة، وتحديث بعض جوانب الكتاب بالهوامش الإيضاحية الضرورية. والكتاب لا يحمل اسم أي مترجم على غير ما جرت عليه العادة في هذا الحقل، والواضح أن المترجم لا يعرف إلاّ القليل جداً عن الموضوع الذي يترجمه إلى العربية، وهو يجهل، بشكل فاضح، التاريخ والجغرافيا اللذين تدور وقائع الكتاب في إطارهما. وكان على المترجم، لو كان حاذقاً ونبيهاً، أو المحرر، لو امتلك الحد الأدنى من المعرفة، أن يصحح الأغلاط التي خرّقت متن الكتاب بهوامش يجعلها في أسفل الصفحات. فعلى سبيل المثال يذكر بيتر ديفيد أن لغماً انفجر في وجه بسام أبو شريف وقطع إحدى يديه (ص ١٢)، لكن الأمر لم يكن على هذا النحو قط، وبسام أبو شريف نفسه يعدد الأضرار التي حلت به جرّاء تفجير عبوة ناسفة بين يديه فيتحدث عن فقدانه بعض أصابعه وليس إحدى يديه. ومع ذلك فإن المترجم أو المحرر بعده لم ينتبها قط إلى هذا الغلط، ولم يصححاه، لأنهما بكل بساطة، يجهلان الصحيح. ويعج هذا الكتاب بثلاث مصائب هي:

١ ـ عدم الدقة

يقول بسام أبو شريف إن لدى الموارنة في لبنان مثلاً هو: "إلقاء فلسطيني واحد في البحر يسبب التلوث، وإلقاء الفلسطينيين في البحر يعني الحل" (ص ١٢٧). والحقيقة أن هذه العبارة ليست مثلاً من أمثال الموارنة على الإطلاق، وإنما مجرد كلام عنصري تردد في أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، وهو يشبه غيره من الشعارات المنحطة

التي كُتبت على الحوائط على شاكلة "على كل لبناني أن يقتل فلسطينياً". وعن اغتيال غسان كنفاني يروي بسام أبو شريف أن غسان وابنة أخته "دخلا إلى سيارته الواقفة في المرأب تحت عمارة مكاتبنا، وأدار غسان مفتاح المحرك... مزق الانفجار الهائل غسان وابنة أخته والسيارة إرباً. هُرعتُ من المكتب إلى أسفل العمارة لأجد تلك الأشلاء مبعثرة في جميع أنحاء المرأب" (ص ١٣٠).

هذه الرواية غريبة فعلاً، وليست صحيحة. فالمعروف أن غسان كنفاني اغتيل في منطقة مار تقلا في الحازمية أمام المنزل الذي يقيم فيه، والذي تملكه شقيقته فايزة، وليس في المرأب الواقع في أسفل عمارة فيها مكاتب للجبهة الشعبية. فكيف هُرع بسام من مكتبه الواقع في كورنيش المزرعة إلى أسفل العمارة فوراً؟ وفي أي حال، فإن قصة اغتيال غسان كنفاني يرويها بسام أبو شريف نفسه، لكن بتفصيل مختلف في كتابه "بيروت مدينتي" (رياض الريس للكتب والنشر، بيروت: ٢٠١٠). وفي الكتاب أيضاً رواية غريبة أُخرى عن اغتيال كمال عدوان ومحمد يوسف النجار وكمال ناصر في بيروت سنة ١٩٧٣، يقول فيها بسام أبو شريف إن الحارس الشخصي لياسر عرفات الذي كان يتحدث العبرية بطلاقة، كان متكئاً على شباك مكتب أبو عمار عندما وصلت فرق الكوماندوس الإسرائيلية إلى الحي الذي يقع فيه مكتب ياسر عرفات، فسارع إلى انتزاع عرفات من مكانه، واندفع به عبر السلالم الخلفية، وأدخله في إحدى السيارات الواقفة على أهبة الاستعداد، وانطلق به بأقصى سرعة. وبعد ذلك ببضع ثوان نُسفت العمارة التي كانت تضم مكتب عرفات، والتي أُخليت لتوها، وهدمت عن بكرة أبيها (ص ١٤٨). وهذه الرواية عجيبة حقاً، وغير صحيحة في بعض جوانبها. أولاً، لم يُنسف المبنى الذي كان مكتب عرفات يقع فيه، بل إن المبنى الذي نسفه الكوماندوس الإسرائيلي كان يضم مكاتب للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في منطقة الفاكهاني في بيروت، وهو قريب جداً من مكتب ياسر عرفات. ثانياً، إذا كان الحارس نبيهاً وتمكن من إبعاد عرفات عن المكان، فلماذا أخلي المكان بدلاً من الاستنفار؟ والصحيح أن المكان لم يُخلَ، وإنما دارت فيه معركة عنيفة منعت الكوماندوس من الوصول إلى مقر عرفات، وسقط فيها خمسة شهداء للجبهة الديمقراطية. وعن حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣ يقول الكاتب إن إحدى الفرق المدرعة السورية شارفت على شواطئ بحيرة الحولة (ص ١٤٢)، وهذا غلط شنيع؛ فبحيرة الحولة كانت قد جُففت منذ زمن طويل، وما عاد هناك أي شواطئ. والصحيح أن القوات المدرعة السورية وصلت إلى تخوم سهل البطيحة عند بحيرة طبرية. وفي الصفحة ١٥٨ يروي بسام قصة زواجه فيقول: "ركعنا [هو وزوجته أمل] أمام الكاردينال الماروني نائب المونسنيور [فرح]". وهذا الكلام يكشف جهل بسام بالرتب الكهنوتية. فنائب المونسنيور فرح ليس كاردينالاً، ولعله مطراناً. والكاردينال الوحيد هو البطريرك صفير. ثم يقول: "ذهبت إلى الجزائر في سنة ١٩٧٤ للمشاركة في اجتماعات المجلس الوطني الفلسطيني" (ص ٢٠٥). والصحيح أن المجلس الوطني الذي عُقد في سنة ١٩٧٤، أي المجلس الثاني عشر الذي أصدر برنامج النقاط العشر، كانت القاهرة مكان عقده وليس الجزائر.

من "أطرف" الأغلاط التي شاعت وفشت في هذا الكتاب خلط التواريخ بعد خلط الأماكن، فيقول: "كان ياسر عرفات في العربية السعودية يوم ٥ حزيران [يونيو ١٩٨٢] يشارك في جنازة الملك خالد" (ص ٢١٩). والصحيح أن الملك خالد توفي في ١٩٨٢/٦/١٣، في خضم الاجتياح الإسرائيلي وليس في بدايته. وياسر عرفات كان فعلاً في السعودية آنذاك، لكن، في زيارة عادية. والأنكى هو ما أورده في الصفحة ٣٦٥ على النحو التالي: "لمّا صافح ياسر عرفات رئيس الوزراء إسحق رابين في باحة البيت الأبيض في أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٣..." ولو يا بسام! لقد جرت المصافحة المشهورة في حديقة البيت الأبيض وليس في باحته، وفي ١٩٩٣/٩/١٣. وهل يُنسى هذا

التاريخ؟ ويتحدث الكتاب عن معركة مشهورة خطّطها وقادها العميد سعد صايل (أبو الوليد) في أثناء الاجتياح الإسرائيلي سنة ١٩٨٢ (ص ٢٥٠ – ٢٥١)، ويتوهم أنها جرت في المدينة الرياضية وفي الملعب الرياضي تحديداً. والصحيح أنها المعركة المشهود لها بالحنكة والشجاعة والانضباط التي وقعت في ميدان سباق الخيل، وأوقعت عشرات القتلى في صفوف الإسرائيليين، وأرغمت أريئيل شارون على التراجع مئة متر إلى الخلف في معارك كانت تقاس يومياً بالأمتار. والغريب أن التفصيلات الصحيحة لهذه المعركة يمكن العثور عليها في كتاب "بيروت مدينتي" لبسام أبو شريف نفسه (ص ١١٤ – ١١٥). ومن الغرابة أن الرواية الواحدة تتغير من كتاب إلى كتاب. علاوة على خلط الأماكن والتواريخ وعدم الدقة، ثمة عدم المعرفة، فهو يقول: "كأني بالانتفاضة تستعيد المواجهة بين ديفيد وجوليات التي وردت في الإنجيل" (ص ٢٨٥). ما الضير لو ترجم المترجم كلمة "ديفيد" إلى داود؟ ثم إن قصة المواجهة بين داود وجوليات لم ترد في الإنجيل وإنما في التوراة، أي في العهد القديم من الكتاب المقدس.

على هذا المنوال من الأغلاط وعدم الدقة جاءت قصة اغتيال خليل الوزير (أبو جهاد) في تونس التي كتبها محنايمي وأبو شريف معاً، ناقصة وباردة وتختلف عن معظم الروايات الأُخرى التي تحدثت عن هذه العملية، بما في ذلك رواية انتصار الوزير زوجة أبو جهاد نفسها. يروي النص المشترك للصديقين محنايمي وأبو شريف أن أبو جهاد اغتيل بأربع رصاصات، وأن فريق الاغتيال التقى انتصار الوزير مصادفة وهي تنزل الدرج حاملة ابنها الصغير وتستفسر عمّا يحدث (ص ٢٩٦ – ٢٩٧). لكن الرواية المعروفة هي أن ٧٤ رصاصة وجدت في جثمان أبو جهاد بعد أن تناوب القتلة على إطلاق النار عليه تشفياً، ومنهم إيهود بَراك، وأن أم جهاد كانت مع أبو جهاد في غرفته حين سمعا الطلقات الأولى التي قضت على الحراس، فأبعدها أبو جهاد عنه، وحمل مسدسه وخرج ليواجه الإسرائيليين، إلاّ إنهم كانوا قد وصلوا إليه وباغتوه بإطلاق النار، فاستشهد، ثم تبارى هؤلاء في إفراغ رصاصهم في جسده. فأم جهاد كانت مع زوجها وشاهدت استشهاده بأم عينها، وروت ذلك مراراً.

٢ ـ الأغلاط

الكتاب يعج بالأغلاط ذات العيارات المختلفة، المضحكة والنافرة معاً، فيذكر "ميناء أوّديا على البحر الأسود" (ص ٢٠) والصحيح: أوديسا. ويورد ماركة النبيذ "تشيانتي" في الصفحة ١٠٢، وهي ماركة مشهورة لبعض النبيذ الإيطالي المتوسط الجودة، والصحيح: كيانتي. أمّا اسم باتريك أرغويلو شريك ليلى خالد في خطف طائرة "إلعال" في سنة ١٩٧٠ فيصبح على يدي المترجم "أرخويو" (ص ١١١). والمضحك أن بلدة ديك المحدي اللبنانية، وهي البلدة التي تتحدر عائلة أمل (زوجة بسام) منها تصبح "دق المهدي" (ص ١٢٤). وترددت عبارة "ابن عمومتي" أكثر من مرة في الكتاب (ص ١٢٥ مثلاً)، وهو تركيب قبيح. فكيف يكون أحدهم ابن عمومتي، أي ابن واحد لمجموعة من الأعمام؟ والصحيح: ابن عمي، أو ابن أحد أعمامي (عمومتي). وهذا التركيب المخلَّع الجانبين يذكرني برسالة تلقتها المطربة فيروز وعليها عبارة "السيدة فيروز زوجة الأخوين رحباني". وعلى هذا المنوال قرأنا أن لأمل خوري شقيقاً يدعى "سونيه" (ص ١٢٧ و١٣٦). وهذا اسم غريب لشاب لبناني من عائلة ذات عقائد قومية. والاسم الصحيح هو سميح. وورد أيضاً "نهر العوالي" (ص ٢٢١)، والمعروف أنه نهر الأولي. أما أبو أحمد فؤاد فيصبح في سجلات نفوس المترجم أبو أحمد فاعور (ص ٢٤٧ و٢٤٨). ويتحدث الكتاب عن "ضحايا التيهور" (ص ٦٤). ما معنى "التيهور"؟ العلم ليس عند المترجم الذي فشل في العثور على معنى هذه الكلمة، فتركها كما هي وتابع طريقه. و"التيهور" تعني التطهير. وقد حرنا في تفسير جملة "يحدقن فينا من شيلاكهن الرمادي" الواردة في الصفحة ١٥٥. ما هو "الشيلاك"

هذا؟ لا ندري. وعلى هذا الغرار وردت عبارة "عملية أرغاز" (ص ١٦٩). وبما أن هذه العبارة غير مفهومة وتحتاج إلى تفسير إضافي، فقد فسرها الكتاب بأن زاد عليها بين قوسين ما يلي: (أي "ترانك"). أي أنه فسر كلمة "أرغاز" بكلمة "ترانك". أمّا المترجم فقد اكتفى، لجهله، بترك الكلمتين العصيتين على حالهما، ولم يبذل أي جهد كما يبدو لحل استغلاق المعنى. وكمثال لعدم المعرفة نقع على كلام عن طائرة سورية مسطحة من دون "ربان" تدعى "صقر"، وهي مضادة لحاملة الصواريخ المدرعة (ص ١٤٦). وهذا الكلام المفكك هو مثل المنامات "المخربطة". فما هي هذه الطائرة المسطحة؟ وهل هناك طائرات مضادة لحاملات الصواريخ المدرعة؟ وفي أي حال فإن هذه الطائرة التي وردت في الصفحة ١٤٦ تحولت إلى صاروخ في الصفحة ٢٣٨. فيا للعجب!

والمقصود من ذلك صاروخ سام الذي يتنقل على منصات متحركة فوق حاملة صواريخ مدرعة. كذلك عثرنا على "أكلة" جديدة هي "ورق الكوسا" (ص ١١٥). والمعروف أن هذه "الأكلة" غير موجودة على الإطلاق. فكيف تسنى لهذا المترجم أن يخترع طعاماً جديداً بهذه السرعة والخفة معاً. والحقيقة أن هذه العبارة كانت كلمة تعارف مع وديع حداد في أثناء اختطاف أربع طائرات إلى مطار داوسن الأردني في سنة ١٩٧٠. لكن العبارة الصحيحة لم تكن "ورق الكوسا" كما أوردها المترجم، بل "ورق عنب وكوسا محشي". وهي "الأكلة" المفضلة لدى وديع حداد. ولو راجع المترجم كتاب "بيروت مدينتي" (ص ٢٢٩) لوجدها بحذافيرها.

٣ ـ المبالغة

قرأنا في الكتاب أن والد أمل خوري (الياس خوري أو أبو سميح) أخبر بسام أبو شريف حين سأله عمّا يتقاضى شهرياً، وكان راتبه آنذاك ٦٠٠ ليرة لبنانية، أن مصروف ابنته هو عشرة آلاف ليرة لبنانية في الشهر الواحد (ص ١٥٢). إن هذه المبالغة تُفسد صدقية الكتاب في نهاية المطاف. فعشرة آلاف ليرة لبنانية في أوائل سبعينيات القرن العشرين كانت تشتري شقة عادية في الطريق الجديدة في بيروت. ويضيف بسام أن حفل زفافه الذي جرى في منزل والد زوجته في ديك المحدي (وليس "دق المهدي") حضره بضعة آلاف من الناس (ص ١٥٨). هذه مبالغة إضافية. بضع مئات ربما، أمّا بضعة آلاف فالأمر مشكوك فيه جداً.

* * *

مَن المسؤول عن هذه الأغلاط التي أفقدت الكتاب إمكان اعتباره مرجعاً تاريخياً وإنسانياً لحقبة صاخبة من التاريخ المعاصر للشعب الفلسطيني؟ أهو الكاتب أم المترجم؟ ولماذا تمر هذه الأغلاط على مُراجع الترجمة ثم على محرر النص؟ الأرجح أن الكتاب، بصيغته الأصلية، فتك به المترجم الذي لا يعرف شيئاً عن الموضوع الذي يترجمه، وأنْ لا مُراجع ولا محرر قد اشتغل على النص السقيم الذي خلّفه المترجم. وهذه المعضلة مستمرة منذ زمن بعيد، ويبدو أن العرض مستمر إلى مدى لا نعرف عدد أعوامه الآتية. والمسؤولية الأولى عن هذا "الاستلشاق" بالقارئ تقع على دار النشر بالتحديد، وبالتأكيد.

صقر أبو فخر